

المحاضرة الثامنة: تحديد مفهومي النص والخطاب

ينبغي في البداية الإقرار بأن ضبط مصطلحات العلوم على اختلافها وتعددتها أمر في غاية الأهمية؛ لأن المصطلحات هي مفاتيح العلوم والمعارف وزيدتها ورحيقها، والتحكم في اللغة المصطلحية هو، في النهاية، تحكم في المعرفة المراد تبليغها.

تسعى هذه المحاضرة إلى تحديد مفهومي النص (Texte) والخطاب (Discours) في الثقافتين العربية والغربية والتفريق بينهما؛ وذلك بالعودة إلى المعاجم والموسوعات والكتابات النقدية العربية والغربية التي أسهمت في إزالة بعض الغموض الذي لا يزال يحيط بهذين المصطلحين وغيرهما من المصطلحات النقدية التي لا تستقر على طرح معين أو تحديد نهائي.

أولاً: مفهوم النص:

أ- مفهوم النص في الثقافة العربية:

أ-1- لغة:

من بين التحديدات اللغوية لكلمة "نص" في الثقافة العربية ما ورد في "لسان العرب" لـ "ابن منظور"، حيث يقول: "النص رفعك الشيء، نصّ الحديث ينصّه نصّاً: رفعه، وكل ما أظهر فقد نُصّ، فالمنصّة ما تظهر عيله العروس لثرى؛ أي على غاية الفضيحة والشهرة والظهور. ومنه قول الفقهاء: "نص القرآن ونص السنة؛ أي ما دلّ ظاهر لفظهما عليه من الأحكام"، والنصيص السير الشديد والحث؛ نصت ناقتي؛ أي حثّها على السير الشديد حتى يستخرج أقصى ما عندها، ونصت الرجل؛ أي استقصيت مسألته عن الشيء حتى تستخرج ما عنده. ونص كل شيء منتهاه؛ أقصى الشيء وغايته"

ومنه فالنص في الدلالة اللغوية هو الرفع والظهور والبيان والوضوح وآخر الشيء ومنتهاه.

أ-2- اصطلاحا:

يعتبر "الإمام الشافعي" أول من أشار في الثقافة العربية إلى دلالة مصطلح "نص" من الناحية الاصطلاحية؛ وذلك في قوله: "النص هو ما أتى الكتاب على غاية البيان فيه، فلم يحتج مع التنزيل فيه إلى غيره"؛ أي "المستغني فيه بالتنزيل عن التأويل"، فظاهره يُغني عن التأويل. وعرفه أيضا "الشريف الجرجاني" بقوله: "النص ما لا يحتمل إلا معنى واحدا، وقيل ما لا يحتمل التأويل". وكل ما ورد عن صاحب الشرع فهو نص.

وأما عند العرب المحدثين فقد اختلف مفهوم النص؛ وذلك بسبب تأثرهم بالثقافة الغربية التي يختلف فيها مفهوم النص عما هو موجود في الثقافة العربية القديمة.

إن آخر معجم موثوق به في اللغة العربية، وهو المعجم الوسيط، ذكر النص بمعنى "صيغة الكلام الأصلية التي وردت من المؤلف".

ويُعرفه الفيلسوف "طه عبد الرحمان" بأنه: "بناء يتركب من عدد من الجمل السليمة مرتبطة فيما بينها بعدد من العلاقات".

وأما في النقد الأدبي فنجد الناقد الجزائري "عبد الملك مرتاض" يُعرفه على أنه "نسيج أنيق من الألفاظ الصامته التي تحتمل المعاني في ذاتها" أو هو "نسيج الألفاظ بجمالية الانزياح، وأناقة النسيج، وعبقورية التصوير". ولا يخفى علاقة هذا التحديد بالمفهوم الغربي لكلمة "نص" بوصفه نسيجا.

ويعرفه الناقد المغربي "سعيد يقطين" النص بأنه: "بنية دلالية تنتجها ذات (فردية أو جماعية)، ضمن بنية نصية منتجة، وفي إطار بنيات ثقافية واجتماعية محددة".

وقريبا من هذا المفهوم نجد "محمد عزام" يقول معرفا النص الأدبي إنه "وحدات لغوية، ذات وظيفة تواصلية - دلالية، تحكمها مبادئ أدبية، وتنتجها ذات فردية أو جماعية"، فالنص من هذا المنظور بنية لسانية ذات دلالة، وذات بعد تواصلية، تحقق الأدبية من خلال مجموعة من

المبادئ اللغوية كالاتساق والانسجام والمبادئ الأدبية والفنية والجمالية كالتخييل والصور الشعرية والتناص وغيرها تنتج ذوات متعددة قد تكون فردية أو جماعية.

ويرى الناقد المغربي محمد مفتاح أن النص "وحدات لغوية طبيعية منضدة متسقة منسجمة"، ويعرفه أيضا من خلال بعض المقومات الأساسية، فالنص عنده "مدونة كلامية، وحدث تواصلية، وتفاعلية، وله بداية ونهاية، أي أنه مغلق كتابيا، لكنه توالدي معنويا؛ لأنه "متولد من أحداث تاريخية وفسانية ولغوية ... وتتناسل منه أحداث لغوية أخرى لاحقة له".

ب- مفهوم النص في الثقافة الغربية:

ب-1- لغة:

صرّحت المعاجم الغربية بأن أصل كلمة "Text" في اللغة الإنجليزية، وكلمة "Texte" في اللغة الفرنسية ترجع إلى الكلمة اللاتينية "Textus" بمعنى النسيج، حيث جاء في معجم لاروس ما يلي: "تتحدّر كلمة النص Textus من فعل نصّ Texere ؛ بمعنى نسج الثوب، والنص تبعا لذلك يعني الثوب: ويعني بعد ذلك تسلسل الأفكار وتوالي الكلمات. إنه الكلام الخاص بكاتب معين في مقابل التعليقات".

ب-2- اصطلاحا:

يشير "جورج مونان" إلى أن مصطلح "نص" يحيل على "سلسلة متتابعة من العلامات اللفظية أو الإشارات الكتابية التي تنتظم في سياق يبرز تجانسها"، ويذهب إلى أن النص "لا ينحصر في وثيقة مكتوبة وحدها، بل كل المتون التي يستعملها اللغوي أو اللساني".

أما الناقد الفرنسي "رولان بارت" فيعرّف النصّ على أنه: "نسيج، وهذا النسيج يوصف بأنه نتاج يتخفى وراءه المعنى". فهو "نسيج من الكلمات يترابط بعضها ببعض"، ترتبط كلمة النسيج بعدة دلالات منها: دقة التنظيم، وبراعة الصنع، والجهد، والقصد، والكمال، وهذه الدلالة مسؤولة إلى حد كبير عن فهم النقاد المعاصرين للنص على أنه نسيج لفظي ناشئ من توجيه رسالة إلى متلقين، وهو نسيج قابل للتفكيك، والتحليل، وإعادة التصور، وإمكانية التداخل، واحتمال التقاطع، إلى آخر ذلك.

وأما "بول ريكور" فيرى النص خطابا تمت كتابته، وفي ذلك يقول: "النص خطاب تم تثبيته بواسطة الكتابة".

أما "أمبرتو إيكو" فينظر للنص في ضوء منهجه السيميائي على أنه "نزهة يقوم فيها المؤلف بوضع الكلمات ليأتي القارئ بالمعنى"، ويحدده في موضع آخر على أنه "آلة كسولة واقتصادية تحيا من قيمة المعاني الزائدة التي يكون المتلقي قد أدخلها على النص".

في حين يعرف النص عند منظري جمالية التلقي بأنه نسيج من الفضاءات البيضاء والفجوات أو عناصر اللاتحديد التي يجب على القارئ أن يملأها من خلال حشد كل إمكاناته الإجرائية والمعرفية لتحقيق جمالية النص. وعليه فالعمل الأدبي ليس نصا تماما وليس ذاتية القارئ تماما ولكنه يشملهما مجتمعين أو مندمجين؛ إذ يكمل كل واحد منهما الآخر، ومعنى النص ينتج من العلاقة الحوارية والتواصلية بين النص والقارئ.

ثانيا: مفهوم الخطاب:

أ- مفهوم الخطاب في الثقافة العربية:

أ-1- لغة:

تشير دلالة كلمة "خطاب" في القرآن الكريم وفي تضاعيف المعاجم العربية إلى الكلام. جاء في "المعجم الوسيط" وغيره: "خاطبه، مخاطبة، وخطابا: كالمه وحادثه، وخاطبه: وجّه إليه كلاما، والخطاب الكلام".

أ-2- اصطلاحا:

عرّفه "الأمدي" على أنه: "اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيء لفهمه"، فهو بذلك يخرج العلامات غير اللغوية من مسمى الخطاب. وحدّه أيضا "الجويني" بقوله: "إن الكلام والخطاب والتكلم والتخاطب والنطق واحد في حقيقة اللغة، وهو ما به يصير الحي متكلما"، وعرّفه "التهناوي" في كشّافه بقوله: "إن الخطاب إما الكلام اللفظي، أو الكلام النفسي الموجّه نحو الغير للإفهام"، فالخطاب مقصور على توجيه الكلام لمن يفهمه.

ب- مفهوم الخطاب في الثقافة الغربية:

ب-1- لغة:

بالعودة إلى المعاجم الغربية نجد أن دلالة مصطلح "خطاب" تتضمن معنى "الحوار" وكذا معنى "الخطابة"، وهو عدل لمصطلحي (Discourse) باللغة الإنجليزية، و(Discours) باللغة الفرنسية، والذي يعود في أصله إلى الاسم اللاتيني (Discursus) المشتق من الفعل (Discurrere)، الذي يعني "الجري هنا وهناك"، أو "الجري ذهابا وإيابا"، وهو فعل يتضمن معنى التدافع الذي يقترن بالتلفظ العفوي وإرسال الكلام والمحادثة الحرة والارتجال.

ب-2- اصطلاحا:

خصّ مصطلح "الخطاب" بال العناية والاهتمام في الثقافة الغربية من قبل كثير من الباحثين والنقاد، وأصبح شائعا في الآونة الأخيرة، إلا أنه تشعب وصارت له دروب عديدة ومفاهيم مختلفة ولا متناهية، وأحيانا متناقضة، حتى بات تحديده أمرا صعبا.

يكاد يجمع الباحثون والنقاد على ريادة "زيليغ هاريس" في بسطه لمصطلح "خطاب"؛ وذلك من خلال بحثه الموسوم بـ"تحليل الخطاب" (1952م)؛ إذ يظهر الخطاب في هذا البحث على أنه "متتالية من الجمل" أو هو "الشكل اللغوي الذي يتجاوز الجملة".

ومن بين المفاهيم الغربية التي قدّمت أيضا لمصطلح "الخطاب" نجد:

(* الموسوعة الفرنسية: "مجموعة من المظاهر اللفظية أو الشفوية أو المكتوبة بوصفها دالة على إيديولوجيا أو حالة عقليات في عصر ما ومجال معين".

(* إيميل بنفنيست: "كل تلفظ يفترض متكلما ومستمعا تكون لدى الأول نية التأثير في الثاني بطريقة ما". وحدّه أيضا بقوله: "كل نص يتضمن قرائن الذاتية الدالة على مقام التلفظ كالزمان والمكان وشخص المتكلم أو المخاطب".

(* أما ميشال فوكو فيحدد الممارسة الخطابية بقوله: "هي شبكة معقدة من العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تبرز فيها الكيفية التي ينتج فيها الكلام كخطاب ينطوي على الهيمنة والمخاطر في الوقت نفسه".

مما تقدّم فإن الخطاب استعمال خاص للغة، أو هو كيان علاماتي موجّه بشكل من الأشكال، ونص منظور إليه في إطار الاستعمال أو التواصل. والخطاب في النقد الأدبي هو النص الشعري أو النثري بعد خروجه من وجوده بالقوة إلى وجوده بالفعل.

ثالثاً: الفرق بين النص والخطاب:

لا تزال إشكالية "النص" و"الخطاب" والتفريق بينهما من عدمه في الوسط النقدي العربي إحدى أهم الإشكالات التي لم تحل بعد بصورة نهائية ومقبولة، فهناك خلط منهجي بين هذين المفهومين، وعدم وضوح الرؤية لحقيقة كل منهما.

ولقد تباينت آراء النقاد والدارسين في رصد طبيعة العلاقة بينهما، وتلك الآراء تمحورت حول موقفين رئيسيين هما:

أ- الموقف الأول: التمييز بين النص والخطاب:

يرى أصحاب هذا الموقف أن النص يختلف عن الخطاب، وأن لكل منهما معانٍ وقيم مختلفة؛ وذلك انطلاقاً من:

أ-1- **اختلاف الدلالة اللغوية لكل من النص والخطاب:** فالدلالة اللغوية للنص ترتبط بالرفع والظهور والوضوح والنسيج، وأما الخطاب فترتبط دلالاته المعجمية بالكلام.

أ-2- **الاختلاف في الحجم:** نُظر إلى الخطاب على اعتباره الوحدة اللغوية المكتملة التي تمتد فتشتمل أكثر من جملة، فهو متتالية من الجمل، وتمّ اعتبار النص وحدة من الخطاب؛ لأنه قد يتجسد في جملة أو كلمة، كما أن الخطاب هو مجموعة من النصوص ذات العلاقة المشتركة.

أ-3- **الكتابة والقراءة:** الخطاب تنتجه اللغة الشفوية المنطوقة، بينما النصوص تنتجها الكتابة، فالخطاب محدود بالقناة النطقية بين المتكلم والسامع، أما النص فإنه يستعمل نظاماً خطياً. فالنص، كما يقول بول ريكور،: "خطاب تم تثبيته بواسطة الكتابة".

أ-4- المستوى المرجعي: يتميز النص عن الخطاب في وعي كثير من الدارسين أن مرجع الخطاب خارجي مقامي، أما مرجع النص فداخلي/ نصي أو نصوصي.

ب- الموقف الثاني: عدم التمييز بين النص والخطاب:

يذهب بعض الباحثين إلى عدم التمييز بين النص والخطاب، واستعمالهما بالمعنى نفسه أو الدلالة على شيء واحد، وهو العمل الأدبي؛ الذي ما فتئ أصحاب هذا الموقف يطلقون عليه تارة مصطلح الخطاب وتارة مصطلح النص. ويمتثل هذا الموقف بعض السرديين أمثال: "جيرار جنيبت"، و"تريفيتان تدوروف" وغيرهم، وهذا التصور قائم على عدة احتمالات تُظهر نقاط اتفاق بين النص والخطاب، من بينها:

ب-1- كل من النص والخطاب عبارة عن حدث يقع في الزمان والمكان.

ب-2- كل من النص والخطاب يهدف إلى إيصال معلومات ومعارف ونقل تجارب إلى المتلقي (سامعا أو قارئاً).

ب-3- اعتبار النص والخطاب ينتميان إلى اللغة، فهما الجزء اللغوي من فعل التواصل.

ب-4- احتواء الخطاب والنص على دلالة المقاصد، وهي من إنتاج المنتج التي أرادها لتأدية الوظيفة التواصلية.

أخيراً يمكن القول: إن الخطاب هو فعل الإنتاج اللفظي، ونتيجته المسموعة أو المرئية، بينما النص هو مجموع البنيات النسقية التي تتضمن الخطاب وتستوعبه، أو بتعبير آخر الخطاب هو النص في حالة الفعل، وبالتالي قد يصبح النص خطاباً، والخطاب نصاً.

مراجع المحاضرة:

- (1) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان.
- (2) محمد بن إدريس الشافعي، الرسالة، تح(أحمد محمد شاكر)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط1، 1938.
- (3) بول ريكور: من النص إلى الفعل، أبحاث التأويل، تر: محمد يرادة، دار الأمان، الرياض، د. ط، المغرب.

- (4) طه عبد الرحمان، في أصول الحوار و تجديد علم الكلام، ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط2، 2000.
- (5) عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، دار هومة، الجزائر، ط1، 2007.
- (6) سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي: النص و السياق، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان ، ط2، 2001.
- (7) محمد عزام، النص الغائب: تجليات التناص في الشعر العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001.
- (8) ربيعة العربي، الحد بين النص والخطاب، مجلة علامات، ع33، يونيو/حزيران 2010، المغرب.
- (9) نصيرة لكحل، النص والخطاب بين المفهوم والاستعمال، مجلة مقاليد، ع5، كلية الآداب واللغات، جامعة ورقلة، الجزائر، ديسمبر 2013.